

جماليّة الفضاء المكاني في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي "للطاهر وطار"



للأستاذ: عبد الرزاق علاء
جامعة الوادي

ملخص:

إن رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي تزخر بعدة فضاءات مكانية، تنوعت بين فضاء الصحراء، وفضاء الجبل، وفضاء المدن. فهذا التنوع في الأمكنة الجغرافية أضفى جماليّة على هذه الرواية أثناء تناسق هذه الفضاءات من حيث وصفها ودلالاتها.

Résumé:

Le roman "le saint tahar retourne à son saint-lieu" foisonne d'espaces variants entre le désert, les montagnes et les villes et c'est cette variation qui a ajouté de l'effet esthétique à ce roman à travers l'homogénéité de ces espaces dans leurs descriptions et leurs connotations.

دراسة الفضاء: يعد الفضاء جماليّة من جماليات الكتابات الروائية، فهو يوصف بكونه مجالا للحدث الروائي، وجيزا تتحرك ضمنه شخصيات الرواية، من حيث تفاعلها مع الفضاء، الذي تعيش فيه حيث ينتج رؤية خاصة به، وقد أكد الباحث غاستون باشلار على أن المكان في الفن ليس مكانا هندسيا محايدا، خاضعا لقياس مساحات الأراضي، بل هو مكان عاشه الأديب كتجربته، و المكان لا يعيش على أراض، بل يعيش داخل جهازنا العصبي، لو عدنا إليه في الظلام، فلسوف نعرف طريقنا إليه¹

فالمكان من هذا المنظور هو موقع يعيشه الأديب بعقله و يبقى راسخا في ذهنه، يستحضره في أية لحظة أو موقف، لذلك وجدنا النقاد والدارسين يختلفون في تسميته، فمنهم من أطلق عليه مصطلح "الحيز" ومنهم تشبث بمصطلح "المكان" ومنهم من عمد إلى تبني مصطلح "الفضاء" الذي أخذ حقه من الاهتمام والتنظير من قبل الدراسات النقدية الحديثة، أما المصطلح الأكثر شيوعا في الدراسات الحديثة هو الفضاء². فالفضاء هو عنصر أساسي

في تشكيل أي عمل روائي، وهو محل وقائع الرواية و حركة شخصياته و أفعالها، و أهوائها، و نوازعها و عواطفها و آمالها و آلامها.

نلاحظ أن هذا المصطلح قد تطور من مجرد " حيز جغرافي " تتجسد فيه الأفعال و تتفاعل فيه الشخصيات إلى مصطلح يمثل عنصر شكلي و تشكيلي، من عناصر الفن و الكيان الاجتماعي، فهو يعد من أحد جماليات الفن الروائي، فمن خلال تتبع مسار الشخصيات في تنقلاتها من مكان إلى آخر، نرصد علاقة الأمكنة ببعضها البعض، و علاقتها ببقية عناصر الرواية.³

انطلاقاً من هذه التعريفات نلمس نوع من التداخل و التشابك بين المصطلحات الثلاث المكان و الحيز و الفضاء، إلا أننا سنتبنى مصطلح الفضاء لأنه " لا يشكل المكان الوعائي الروائي فحسب، بل يؤدي دوره في " العمل " كأى ركن آخر من أركان الرواية"⁴.

وهناك من الدراسيين من قسم الفضاء إلى ثلاثة أنواع، الفضاء الجغرافي والفضاء النصي والفضاء الدلالي، وهذا التقسيم الذي استخلصه حميد الحمداني عند دراسته للفضاء⁵ إلا أننا سنقتصر على دراسة الفضاء-المكاني- الجغرافي.

الفضاء الجغرافي: l'espace géographique : و فيه يقدم لنا الراوي حدا أدنى من الإشارات الجغرافية التي تكون فيه مجرد نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القاري أو من أجل اكتشاف منهجية للأماكن⁶ سواء أكانت هذه الأماكن عامة، أم للإقامات الاختيارية أو الجبرية. فتتفاعل الشخصيات مع الفضاء التي تعيش فيه هو الذي ينتج لديهم رؤية خاصة، تتبعها مواقف فعلية تجاه هذا الفضاء. ومن الأفضية الجغرافية التي وظفها الكاتب في روايته نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

فضاء الصحراء: " هو عمق ثقافي و معتقدي لأبناء المنطقة العربية، لذلك تعاملت معها الرواية العربية بعمق و شمولية"⁷. وهناك عناصر مكونة لهذا الفضاء : وهما طبيعة الصحراء و موقعها الجغرافي، إن الصحراء هي عبارة عن مساحة رمليّة شاسعة، تخضع بشكل كبير إلى التقلبات و التغيرات التي تحدثها العواصف الرملية، وهي غير صالحة للزراعة انطوت على ذاتها و قطعت صلتها بالعالم الخارجي، هذا بالإضافة إلى الغياب الكلي للعناصر الصناعية الحضارية هذا إن دل على شيء فإنما يدل على درجة صعوبة العيش فيها . إن فضاء الصحراء يحمل ما يحمل من الدلالات و المعاني، فالكاتب عندما أدرج هذا النوع من الفضاء أراد من وراءه الإشارة إلى عدة قيم و تأويلات. ومن الدلالات التي اتخذها فضاء الصحراء في النص الروائي ما يلي:

المحافظة: فسكان هذه المنطقة يتسمون بالحفاظ على الدين والأخلاق والعادات والتقاليد، فهم من أشد الناس حرصاً واستمساكاً بأمر دينهم وديناهم. يقول السارد مبيناً هذه الخاصية: "ارتأيت أن الهروب بدين الله عنصر مهم في الواجهة، نقيم في هذا الضيف نتضرع للمولى عساه يفرج الكرب" 8 فهذا المقطع السردى المذكور في الرواية يبرز مدى أهمية سكان الصحراء في المحافظة على دين الله تعالى.

عدم الاستقرار: إن طبيعة الصحراء من حيث مناخها وتضاريسها، تفرض على صاحبها إن يتأقلم معها، فالإنسان الصحراوي ليس هو الفاعل في الصحراء، بل هي الفاعلة وهو يتلقى الفعل⁹ وهي تجبره على التنقل والترحال، وعدم الاستقرار إن هذا المحكوم بالمجهول، يولد رهبة خاصة، وشعور بالضآلة والانتهاة والخوف. وهذا ما حدث للولي الطاهر عند عودته من غيبته، فمقامه الذي بناه للعبادة لم يعثر عليه، فوجد نفسه تائهاً، لا يعلم أين هو "و لكن هذا الضيف أين يقع، حتى تذهل شمس، كل هذا الدهول؟ ينبغي أن لا استسلم لهذا الحال" 10، فهذا الفضاء "إن الظروف الطبيعية التي تمتاز بها الصحراء جعلت معالم المقام تمحي، فأصبح الولي الطاهر تائهاً يبحث عن مقامه في هذا الفضاء اللامتناهي.

صعوبة الحياة: تكمن الصعوبة في المسالك ووسائل العيش ووسائل التنقل، فاستراتيجية الصحراء تعكس هذه الصعوبة من خلال طبيعتها الجغرافية، فحتى الحيوانات التي تعيش فيها قد ألهمها الله سبحانه وتعالى قوة التحمل. ويجب على الإنسان أيضاً أن يخضع إلى قوة التحمل لكي يعيش فيها: "ظل الولي الطاهر يرفع كفيه ويتضرع إلى الله بمختلف الأدعية ساعات طويلة لا يتوقف، لكن شيء لم يحدث، الشمس في منتصف السماء، والظل ينزل مباشرة تحت العضباء" 11 فعلى الرغم من الشمس الوهاجة التي ترسل أشعتها صوب رأس الولي، إلا أن هذا الأخير تحملها لساعات عديدة وظل يدعو الله أن يعينه لإيجاد مقامه الزكي.

فضاء المقام: هو حيز في فضاء الصحراء، أو جزء منها. المقام. أسسه عباد الرحمن الهاربيين بدين الله، عندما انتشروا بآء خطير، يصيب المؤمن في قلبه، بحيث أصبح لا هو بالمؤمن ولا هو بالكافر، ومن هنا تتضح أهمية هذا الفضاء في كونه يشكل ملجأ للمؤمنين المتقين الخائفين من الله تعالى، ويدخله يشعرون بالأمان والطمأنينة على دينهم، وفيه يتلقون تعاليم دينهم، المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشكر، والتسبيح، كما أنه أصبح فضاء لطرح الانشغالات والتساؤلات التي تنفعهم في حياتهم اليومية والدينية.

يتميز هذا الفضاء بطوابقه السبعة، كل طابق مخصص لفئة معينة من الطلبة والمريدين والشيوخ، وصاحب المقام، فهو مكان للعبادة وطلب العلم، يخضع المقيمون فيه لقانون

صاحب المقام، وهو مصدر لتعلم الفقه، والشريعة، التاريخ الإسلامي، وهذا ما يتضح من خلال أفكار وسلوك وممارسات الشخصيات التي توجد بداخله فهي تثير مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالتاريخ الإسلامي و الشخصيات الإسلامية البارزة. " لقد تعاقبوا الواحد تلو الآخر على دار الكتب، يطلبون كتب التاريخ/ الطبري، اليعقوبي، البلاذري، بن سمام، وحتى كتاب الأغاني"¹².

من خلال تتبعنا للأحداث التي جرت في المقام الزكي لاحظنا أن هذا الأخير كان في البداية بمثابة منارة لاكتساب العلم، و ملجأ للوقاية من المرض الذي أصاب المؤمنين، ثم تحول إلى مصدر لإثارة الشكوك و زرع الفتن، فبدل أن يهتم الطلبة بالتفقه في الدين راحوا يشيرون بعض القضايا التاريخية دون التحقق من صحتها تاريخيا. ومن أمثلة هذه الفتن ما حيكت حول شخصية خالد الوليد، عندما شكك طلبة المقام في قدرته على المقاومة لما كان مريضا داخل الفسطاط، بحيث أنه شن هجمة على حذيفة فقتلها؛ " كيف هو مريض بالفسطاط، ثم يشن هجمة على حذيفة فيدحرها"¹³

ومن الفتن الأخرى التي أثارها طلبة المقام مطالبة الولي الطاهر بأن يأذن لهم بإقامة صلاة الغائب على روح الفقيد مالك بن نويرة، الذي قتله خالد بن الوليد بحجة الارتداد عن دين الله، بينما هم يرون بأن خالد قد تسرع في قتل مالك بن النويرة: " لقد قرروا يا ولي الله الطاهر، أن يرفعوا البك عريضة، يستأذنونك فيها لإقامة صلاة الغائب على مالك بن نويرة. نستنتج مما سبق أن المقام أسس لتأديته مهمة معينة تتمثل في الوقاية من الوباء الذي كان منتشرا خارج المقام. فمعظم الشرائع التي التحقت بالمقام الزكي كان غرضها و مبتغيها في البداية، العبادة و الدعاء، و التحصن من الوباء، وهذا ما تدل عليه الملفوظان السردية التالية:

- " التحق بالمقام الزكي خلق كثير تجلبهم الكرامات، و البركات و حسن العبادة و الدعاء"¹⁴

- " أسسها عباد الرحمن هاربين بدين الله عندما انتشر وباء خطير، يصيب المؤمن في قلبه"¹⁵
 - " عندما دب اليأس بعد محاولات متواصلت، بلغت حد المواجهات المسلحة، و الحروب الطاحنة ما تزال تتواصل، ارتأيت، أن الهروب بدين الله عنصر مهم في المواجهة، نتضرع للمولي عساه يفرج الكرب، فيضع حدا لهذا الاكتساح للوباء لأمر الإسلام"¹⁶
 فمن خلال هذه الملفوظان السردية نستشف أن وظيفة المقام تكمن في ثلاث مهام أساسية. الحماية من الوباء الخطير الذي أصاب المؤمنين.

مكان للعبادة والتضرع إلى الله وتلقي الدروس والمواعظ.

ملجأ المؤمنين المتقين الراضين للاقتتال وللأوضاع الساندة في المجتمع.

لكن مهام المقام قد تغيرت بتغير أفعال وأحوال الشخصيات المقيمة. لاسيما بعد رحيل الولي الطاهر عنه. فقد تحول من مكان للعبادة إلى مكان لإقامة الأعراس؛ " بالتأكيد هذا ليس مقامي الزكي لأن الأصوات التي تنبعث منه، تختلف عن أصوات مقامي حيث يلهج المؤمنون بالدعاء إلى رب الكون... أنهم يغنون يزفون عروسا، الطبول والدفوف...¹⁷.

" تلافاز قد يكون تلافاز، بل ربما هي مكبرات صوت، بثت في كل طابق، آه، من أعطاني سبيلا إلى اقتحام هذه البناية الساحرة"¹⁸

" أقيم سرادق على الطرف المقابل، اعتلته فرقة موسيقية يرتدي أفرادها بدلات إفرنجية سوداء وقمصان بيضاء، ويضعون في أعناقهم قطع قماش سوداء اللون معقود في شكل فراشات، هي اقرب ما تكون إلى صلبان "¹⁹

إن مهام المقام قد تحول وهذا نظرا لتحول أفعال ومظاهر الشخصيات التي تقيم فيه كما أن شكله الخارجي ظل كما هو، إلا أن مظاهره الداخلية قد انقلبت رأسا على عقب. ويلاحظ القارئ أيضا أن المقام قد تحول إلى فضاء للحروب والملفوظات السردية تؤكد صحة ما ذهبنا إليه:

" لم يكن هناك متسع من الوقت، ليؤدي الولي الطاهر التحية لمقام بصلاة ركعتين، فقد هزته الصرخات من الداخل، مقرونة يدوي انفجاريات، قنابل مختلفة الأنواع والأصوات"²⁰.

" كانت الصرخات منبعثة من نساء ومن أطفال ومن رجال ومن مختلف الأعمار كما يبدو"²¹ فضاء الجبل: ينقلنا الكاتب إلى فضاء آخر هو الجبل، فمن الضيف الواسع إلى مكان أضيق وأوعر منه، فإذا كانت الضيف يرمز إلى التيه والضياح فان فضاء الجبل يرمز إلى المخاطر والحواجز لأن القوم الذين اتخذوا من جبال بيوتا لم يكن هدفهم الاستقرار فيه بغرض العيش والطمأنينة، ولكن كان هدفهم شيئا آخر كما يصف الراوي ذلك: " وجد نفسه عرض جبال لا يعرفها تتخللها وديان غزيرة المياه، قوية السيلان، وسط قوم على رؤوسهم قلنسوات من صوف مزركش بعضه ابيض وبعضه اسود، بعضه تتخلله ألوان تختلف بين الأخضر والأزرق، لهم لحى مخصبة بالحناء، لتبلغ لدى بعضهم الركب، يرتدون جلابيب رمادية تعلو طبقة خفيفة من تراب، عليها معطف إفرنجية مسدودة بأحزمة في أعينهم الكحل، وفي شفاههم السواك، تعبق من أفواههم رائحة مسك بالغ الحدة"²²

نلاحظ أن الكاتب لم يهتم بوصف الجبل، وإنما ركز وصفه على البشر الذين يقيمون بهذا الجبل، وأشار إلى تأثير هذا الأخير في سلوك ولباس أهله. كما اعتنى الكاتب بوصف بعض الأفضية الأخرى كالنجوم والمجرات والكواكب والكثبان الرملية والبحار والمحيطات دون الاعتناء بتحديد أماكنها. ولكن الشيء الرابط بين هذه الأفضية وفضاء الجبل هي علاقة السمو تارة، وعلاقة الانحدار تارة أخرى.

إن إدراج الكاتب لبعض التفاصيل المتعلقة ببعض الأمكنة "يشير إلى إدراكه لقيمة الأشياء بمساهماتها في خلق المناخ العام لروايته، حتى وأن قدمها بشيء من الترميز، فهي لا تكتفي بمعناها المباشر بل تتجاوزها إلى مستوى أعلى، وكأنه يرسم صورة ملونة، بلون الجبال والمساحات وألوان ألبسة هؤلاء القوم الباهتة والتي تختلط بلون طبيعة الجبل ليوهما بواقع يحاكيه على مستوى المتخيل".²³ وما كان ذلك إلا تمهيدا ليصف فيما بعد نشوب معركة كان فيها الولي الطاهر قائدا وبطلا معاً. "ارتفعت الخناجر، وكبرو تهلل وامتأل النهر بالجثث حية وميتة، ودكن لون الماء واسودت السماء، إن تنصروا الله ينصركم، رد الجميع، بينما الخناجر تستل، والاشتباك الجسدي، يقوى ويعنف، والأجساد تتساقط من كلا الطرفين، وجد الولي الطاهر في نفسه قوة خارقة، فكان وحده يقوم مقام عشرة محاربين أشداء، ما جعله محض أنظار الجميع".²⁴ ففضاء الجبل أصبح ساحة للاقتتال والحروب لأن طبيعة تضاريسه سمحت لهؤلاء القوم للاحتماء به.

فضاء المدينة: إذا كان السارد قد تعامل مع فضاء الفيف والمقام والجبل بنوع من الطلاقة والحرية، فقد ضيق تصوير هذا الفضاء، وأحاطه بأمكنة حقيقة لا تحتاج إلى تخيل أو تأويل بحيث أنه وصف القاهرة، فقال: "القاهرة المعزية اختفت منها العمارات والحارات والمساجد والقصور والفيلات حتى الأزهر انطمست معالمه، حتى المقطم استوى، حتى الأهرامات توارت وبتت على امتداد البصر".²⁵

فقد صور الكاتب فضاء مدينة القاهرة تصوير يكاد يكون منسوخاً عن حقيقته بحيث ذكر المدينة وما احتوته من حارات ومعالم ومنازل كالأزهر الشريف، ولم يكتف الكاتب بوصف فضاء القاهرة من الخارج، بل راح يصور ما طرأ على هذا الفضاء من تحولات وتغيرات وانعكاسات كل ذلك على شاغلي هذا الفضاء.

فالكاتب في بدايته حديثه عن مدينة القاهرة ذكر الصورة الحقيقية التي كانت تعيشها هذه المدينة لكن فجأة ينقلنا إلى صورة مسطحة لا يبدو منها أي صرح، بحيث انطمست كل المعالم والآثار والمنازل التي كانت بها، لتتحول إلى ساحة رحبة، لإقامة الإعراس و

الأفراح يقول الكاتب : " القاهرة و ما حوت تحولت إلى فسطاط كبير، ازدان بالورود و البالونات متعددة الألوان و اصطف الناس رجالا و نساء دونما ترتيب أو تميز على الجانبين، بعضهم أعراب أعاجم من مختلف الأجناس، بعضهم يرتدي الزي العربي المميز بعقالت الأسود، بعض الرجال لا يستترهم سوى نباتات قصيرة، بينما هم يحتضنون نساء و غلمانا لا يغطي نصفهم الحلوى شيئا، أما الجزء السفلي فمكثف بنباتات حريرية شفافة" 26

فقد انتقل السارد من وصف فضاء القاهرة إلى وصف الشخصيات المقيمة بها و ألبستهم، والكاتب في مثل هذه الحالات لا يورد الأشياء على طبيعتها، بل يقدمها في شكل تلميحات و إشارات تحملها ملامح و أفعال شخصيات، ليقرنها بالمكان المتحدث عنه لتخلق فضاء مضجعا بمجموعة من التأويلات و هذه التقنية يلجأ إليها معظم الروائيين لتكون بمثابة " إشارات عابرة تدعو لها الضرورة لإقامة الحكيم" 27. لذلك لا يشعر القارئ بالاستقرار في هذا النوع من الأفضية، نظرا لتحولها وتبدلها.

وبعد الحديث عن فضاء القاهرة و تحولاتها ينقلنا الكاتب إلى مدينة " الجزائر" فيقدمها لنا على أنها ملهى كبير من ملاهي " تايوان " فيقول: " مدينة الجزائر تبدو من بعيد نورا يتوهج نحو الأعلى، و لا احد يعلم عما تنام عليه من نواقض الوضوء ومن تدابير عاصفة من فوق تبدو ملهى كبير من ملاهي تايوان، لكنه خاو، خاو من سراقق لفرقة موسيقية تأبى الظهور، و من راقصين و راقصات ظهر عليهم النوم" 28.

فقد اختزل الكاتب مدينة الجزائر في صورة ملهى كبير، و لهذا التصوير عدة تأويلات و تفسيرات، سنحاول الإشارة إليها :

- تصوير الحالة التي آلت إليها مدينة الجزائر.
- تصوير التحول الذي مس كيان مجتمعا، و أهاليها، من حيث المبادئ والأخلاق، و التربية.
- إبراز الشرائح التي انطوت تحت غطاء هذه المدينة، لكنها في العمق و في أسفل الملهى الكبير، هي كهف ملاذهم، لا آخر بطوله و لا نهاية لعرضه، تملا الدواب من كل نوع و من كل حجم " بعضها تماسيح، بعضها ثعالب، بعضها ضفادع و قمل...."
- فقد شبه الكاتب مدينة الجزائر، بأدغال مغلقة في القدم، يسودها قانون الغاب حيث يفترس الوحوش بعضهم بعضا. لقد أصبحت مدينة الجزائر محفوفة بالمخاطر، و العيش فيها يتطلب المجازفة و المغامرة، لأن المجموعة الساكنة فيها، تحمل معاني الغدرو الخيانة.
- وبعد أن صور السارد مدينة الجزائر، انتقل إلى تصوير منطقة أولاد علال بالريس حميدو، و المجازر التي وقعت بها، و يمدنا بمجموعة من المشاهد المرعبة التي حدثت هناك ، كما

يصف لنا مشاهد الموت و الرعب التي وقعت في المنازل فيقول: " توقفت الحياة في هذا المنزل، خرجنا محموين، كان الحي كله منزلا واحد.."²⁹. وتهديد سكانها بالحرق والتدمير: " إذا لم تفتحوا الباب ألهبنا فيكم النار، لقد صبنا البنزين"³⁰. " هوى المنزل بطوابقه الثلاث، و هوت معظم جدران المنازل القريبة منه أو المحاذية له، ارتفع البنيان إلى فوق ثم راح يهوي"³¹

فهذه المقاطع السردية تبين مدى الخراب و الرعب الذي مس منازل قرية أولاد علال، فقد لقيت كل البيوت نفس المصير إن عبارة: " كان الحي كله منزلا واحد " تعطينا تصويرا للإطار المكاني الذي تحدث فيه المجازر، ففي كل بيت يحدث موقف مشترك هو مجابهة أفراد الموت وملاقاتهم لنفس المصير: اخرجوا الجميع نساء ورجالا إلى الشارع، الذكور ينبطحون على بطونهم، أما السبايا على ظهورهن، لا حي في الحي سوى من يتقرر سبيلها.³² لقد دلت عبارة " لا حي في الحي " عن انعدام الحياة في القرية، ليحل محلها الساطور، و تدفق الدماء، و قلع الرؤوس " أنا مسلم أصلي و أصوم، و أحفظ فرجي و عرضي، يهوى الساطور يتدفق الدم يتطاير الغراس، يا إخوتي يا أخوتي، يهوى الساطور، يتدفق الدم يتطاير الرأس، يا لعسكرا لحكومة، يهوى الساطور يتدفق الدم يتطاير الرأس"³³

نستشف مما سبق أن فضاء قرية أولاد علال بعدما كان أهله يعيشون في أمن و أمان تحول في لحظة إلى مكان مخيف ومرعب نتيجة الأعمال الإرهابية التي نفذتها مجموعة إرهابية في إحدى الليالي المظلمة.

لقد أشار السارد إلى الكيفية التي كان يتم بها القتل بدون رحمة و لا شفقة كما صور لنا تلك المشاهد تصويرا يكاد يكون بآلة تصوير وهي تجوب الشوارع و البيوت، تلقط الصور البشعة، مما يجعل القاري يعيش هذه الأحداث بكل جوارحه، و يتحسر على هذه الجرائم التي وقعت داخل هذا الفضاء الحقيقي.

الوصف: هو عنصر أساسي من عناصر الرواية و خاصية من خصائصها الفنية، و هو يرتبط ارتباطا وثيقا بالخصائص الداخلية للشخصيات، و من المعلوم أن النصوص السردية ناتجة عن تشابك عناصر سردية و عناصر وصفية " تقييم فيما بينها علاقة خاصة يبدو الوصف كما لو كان باستطاعته وجوب الاستقلال عن السرد القصصي، لكن العكس صعب التصور"³⁴. فالسارد يجد نفسه مرغما للتعامل مع الوصف إذ يمثل أحد خصائص البناء في هذا الخطاب، فهو حتمية لا مفر منها.

إن الاهتمام بالتفاصيل أثناء السرد يوحي بالعلاقة الحميمة بين العنصرين "الوصف والسرد". فالسارد عندما يلجأ إلى ذكر تفاصيل الأمكنة وهيئة الأشخاص ودوافعهم النفسية وحياتهم الشخصية، يستعين بأداة الوصف التي تعد طريقة مميزة لتصوير الصور والأحداث. كما يعد الوصف وسيلة من وسائل التعبير القصصي والروائي وهو "أداة لإظهار ملامح الأشخاص الخارجية المرتبطة بأحوالهم الداخلية، كما أنه يضيء على الأحداث الجزئية والتفاصيل لتمنحها صفة الواقعية وتظهرها للعيان وتوضحها للأذهان"³⁵.

الوصف أحياناً يكون إجابة عن أسئلة، قد يطرحها القاري أثناء تحاوره مع النص السرد، ليتدخل لتوضيحها، ويبرز مجموعة من القيم التي اتسمت بها الشخصيات لكي يتوسع الحقل الدلالي الذي تحيل عليه المحمولات الوصفية، فتكسبه طاقة وظيفية دلالية وهذا ما جعله يأخذ مكانة مهمة في تقنيات الخطاب السرد، وأصبح يقوم بوظيفتين داخل النص السرد: "الأولى تجميلية والثانية طبيعية تفسيرية ورمزية" متصلة بالشخصيات وواقعها الخارجي والداخلي والذي يقوم به "الوصف" قصد الوصول إلى أعماق الشخصية وتركيباتها النفسية. فهذه التقنية يتحكم فيها الكاتب الماهر ليضيء على الرواية الواقعية نوع من الإبداع الفني وبواسطة الوصف "يتفوق القاص على الواقع وحدوده الشائعة فيعطله ويؤوله وابدع فيه"³⁶.

لقد استعان الكاتب بهذه التقنية أثناء وصفه للأفضية والشخصيات، كما يتضح

ذلك:

2- 1 وصف الأمكنة: لقد تعددت الأمكنة في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الذكي" وتنوعت المقاطع السردية الدالة على وصفها:

2- 1 المقام: بناه الولي الطاهر عند انتشار الوباء الذي أصاب المؤمنين في المدينة هروبا بدين الله، وقد صممه على الشكل الآتي: "الطوابق هي هي سبعة بتمامها وكمالها، طابق الزوار الذي ينفذ عليه الباب الكبير في الأسفل بجناحيه، جناح للرجال وجناح للنساء، والمقصورة التي تتوسطهما، حيث يتخذ المقدم مكتبة وموقع الاستقبال، الطابق الذي يليه خاص بتعليم القرآن الكريم والشريعة، وبعض العلوم، يسع لأربعمئة طالب وطالبة، الذي يليه يتشكل من جناح واحد، هو المصلى به محراب تغطيه الزرابي، الطابق الذي فوقه، مرقد للطلبة والمريدين، الذي فوقه مرقد الطالبات والمربيات الذي يليه، نصفه للمؤمن، ونصفه للشيوخ ينأون فيه، ويعدون دروسهم الطابق السابع، خلوتي وطريقي إلى حبيبي"³⁷.

فالسارد قد وصف المقام وصفاً دقيقاً يجعل القاري يتجول بداخله ويعرفه حق المعرفة كما أنه يمكن لرسام أن يهندس به بالطريقة التي وصف بها، فهذا المقام ليس له وجود في الواقع إلا أن الكاتب استطاع بقدرته الإبداعية، أن يجعله أقرب إلى الواقع وكأنه فندق مصمم ومزين، وقد أوكلت له مهمة معينة.

2-1-2 وصف الجبل: لقد تعرض الكاتب إلى وصف الجبل أثناء حديثه عن الشخصيات التي اتخذته ملاذاً لها، و وصف أيضاً الطبيعة المحيطة بهذه الجبال فقال: " وجد نفسه عرض جبال لا يعرفها، تتخللها وديان، غزيرة المياه، قوية السيال... "38.

فقد كان الوصف في هذا المقام وصفاً مستعجلاً، إلا أنه قد أعطى لنا صورة عن الجبال التي حوت الوديان المملوءة بالمياه، والتي تنحدر منها شلالات، فهذا النوع من الوصف، هو وصف جمالي تزييني وهو يندرج ضمن الوظيفة الأولى التي ذكرناها.

2-1-3 وصف مدينة الجزائر: يتجلى الوصف بصورة واضحة ومركزة عندما ينتقل السارد إلى وصف المدينة. وبواسطته يقترب من الواقع، ويقوم بوظيفة تتعدى وظيفته تزيينية ليصبح طريقة ملائمة للنقد وتحليل الواقع. فالروائي عندما يصف لنا ملهى أو حانة أو أي شيء آخر فهو يعرض أمامنا واقعا محسوسا له انعكاساته على الشخصيات، كما يعتبر وسيلة لتوصيل فكرة أو رأي معين تجاه هذا الواقع، و بيان تأثيره وتأثره، فالطاهر وطار عندما وصف مدينة الجزائر قدمها ووصفها بأنها ملهى كبير " مدينة الجزائر تبدو من بعيد نورا يتوهج نحو الأعلى، و لا احد يعلم عما تنام عليه من نواقض الوضوء، و من تدابير عاصفة، من فوق تبدو ملهى كبير من ملاهي تايوان، لكنه خاو من سرادق لفرقة موسيقية تآبى الظهور و من راقصين وراقصات غلبهم النوم "39

فهذا الوصف الذي أتى به السارد في هذا المقام هو تبيان وتشخيص لمدينة الجزائر وواقعها المعاش حيث يقول: " و لا أحد يعلم عما تنام عليه من نواقض الوضوء، حيث هي في العمق وفي أسفل الملهى الكبير، كهف مد لهم، لا آخر لطوله ولا نهاية تعرضه تملؤه الدواب من كل نوع و من كل حجم، بعضها ديناصورات، بعضها تماسيح، بعضها ثعالب بعضها ضفادع و قمل، بعضها يقضم أيدي بعضه، بعضها يقضم أرجل بعضه، بعضها ينهش صدوراً أو بطون أو أرحام بعضه "40.

فمن خلال هذا المقطع السردى أراد الكاتب توصيل فكرة، مفادها أن الأوضاع التي تنام عليها مدينة الجزائر لا تبشر بالخير، وهذا راجع إلى طبيعة الأفعال و التصرفات التي يقوم بها أهلها.

4-1-2 وصف القاهرة: لم يتعرض الكاتب إلى وصف مدينة القاهرة كما هي في الواقع ، بل وصفها باعتبارها مدينة فقدت بريق حضارتها و علمها لتصبح ملجأ أو مقاما يقام فيها الأعراس " القاهرة و ما حوت، تحولت إلى فسطاط كبير ، ازدان بالورود و البالونات متعددة الألوان، و اصطف الناس رجالا و نساء، دونما ترتيب أو تمييز على الجانبين، أغراب أعاجم، من مختلف الأجناس أقيم سرادق على الطرف المقابل، أعتله فرقة موسيقية يرتدي أفرادها بدلات إفرنجية سوداء و قمصان بيضاء و يضعون في أعناقهم، قطع قماش سوداء اللون معقودة في شكل فراشات هي أقرب ما تكون صلبان" 41 ويستمر في وصفها قائلا: " القاهرة ، القاهرة المعزيتة، اختفت منها العمارات و الحارات و المساجد و القصور و الضيالات و حتى الأزهر، انطمست معالمه" 42

فالوصف الذي جاء به السارد في هذا المقام هو وصف انتقادي ، وكأنه أراد أن يقول للقارئ أن القاهرة بعد ما كانت منارة لطلبة أهل العلم أصبحت قبلت للسواح الأعاجم، ووكرا للفساد. نستشف مما سبق أن الكاتب قد استغل هذا الشكل من الوصف للتعبير عن أماكن وفضاءات وذلك لإبراز موقفه تجاه الحالة التي آلت إليها المدن التي نتناولها .

الهوامش

- 1- عبد الناصر مباركية- قراءات و دراسات نقدية في أدب عبد الحميد بن هدوقة- محاضرات بعنوان الجازية والدرأويش، بين الثرات السردى الروائى و جماليّة المكان- دط، دت ص 14.
- 2- عبد العالي بشير- تحليل الخطاب السردى و الشعري ط1 1994، ص 134.
- 3- ينظر: عبد الحميد بورايو، منطق السرد - دراسات في القصّة الجزائرية الحديثة- ديوان المطبوعات الجامعية. ط1 دت. ص 45.
- 4- عبد المالك مرتاض- في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد -المجلس الوطنى للثقافة الوطنية و الآداب ط1 1978 ص 132.
- 5- ينظر عبد العالي بشير: تحليل الخطاب السردى و الشعري ص 64-65
- 6- المصدر السابق، الصفحة عينها.
- 7- صالح إبراهيم- الفضاء و لغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف- المركز الثقافى العربى (دط، دت) ص 14.
- 8- الرواية ص 23.
- 9- صالح إبراهيم- الفضاء و لغة السرد فيروايات عبد الرحمن منيف، ص 17
- 10- الرواية ص 19
- 11- الرواية ص 14
- 12- الرواية ص 41
- 13- الرواية ص 93
- 14- الرواية ص 23

- ¹⁵ - الرواية ص 26
- ¹⁶ - الرواية ص 23.
- ¹⁷ - الرواية ص 45.
- ¹⁸ - الرواية ص 46
- ¹⁹ - الرواية ص 47
- ²⁰ - الرواية ص 83.
- ²¹ - الرواية ص نفسها
- ²² - الرواية ص 31.
- 23- الفضاء الحكائي في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي- قراءة سمياثية(تجريدية المكان) بن ستيتي سعدية- محاضرات الملتقى الرابع-السيمياء والنص الأدبي- جامعة محمد خيضر بسكرة 2006/11/128 ص 302.
- ²⁴ - الرواية ص 30.
- ²⁵ - الرواية ص 46.
- ²⁶ - الرواية ص 47.
- ²⁷ - حميد الحميداني- بنية النص السردى ص 69.
- ²⁸ - الرواية ص 84
- ²⁹ -الرواية؛ 87
- ³⁰ - الرواية؛ 87
- ³¹ - الرواية؛ 88
- ³² -الرواية 89
- ³³ - الرواية 90.
- ³⁴ - دليل مرسى: كريستان عاشور، زينب بوعلی، نجا خدة- مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع لبنان ط1-1985 ص 165.
- ³⁵ - إيليا الحاوي: في النقد و الأدب، ج4- الأدب المعاصر تطور القصيدة المعاصرة – مقطوعات من الأدباء المعاصرين دار الكتاب اللبناني ط2-1986 ص 140.
- ³⁶ - إيليا الحاوي في النقد و الأدب ج4 ص 140.
- ³⁷ - الرواية 21.
- ³⁸ - الرواية 29.
- ³⁹ - الرواية 84
- ⁴⁰ - الرواية الصفحة نفسها
- ⁴¹ - الرواية 47
- ⁴² - الرواية 46